المغطس

رستم مكجيان

في هذه البقعة يتشابك الماضي والحاضر والمستقبل، يلتقي الله والإنسان في مسيرة الخلاص، ويلتقي العهدان: القديم والجديد في خط خلاصي موصول، ليصبح الزمن كله حقيقة واحدة غير متجزئة حقيقة روحية وإيمانية تزداد رسوخا في قلوب المؤمنين كلما مر الزمن.

منطقة المغطس بقعة مقدسة تقع إلى الغرب من الرامة والكفرين في لواء الشونة الجنوبية، على الضفة الشرقية من نهر الأردن حوالي ٩كم شمال البحر الميت، ويمكن منها مشاهدة مدينة أريحا التي تقع على مسافة عدة كيلومترات إلى الغرب من النهر.

بدأ الكادر الوطني التابع لدائرة الآثار العامة قبل عدة سنوات أعمال الحفريات في الموقع حيث تم اكتشاف دير وعدة كنائس واستراحة للحجاج وبركة كبيرة وكهوف الرهبان، بالإضافة إلى موقع مرتبط بمريم المصرية. وبدأت أعمال الصيانة والترميم في الموقع وما زالت مستمرة وذلك لخصوصية الموقع وبعض العوامل الطبيعية والبيئية المؤثرة عليه.

برزت أهمية الموقع الحضاري والتاريخي والديني والبيئي من خلال الدلائل التي تثبت أن العديد من الأنبياء عليهم السلام أتوا إلى الموقع أو عاشوا فيه لفترة من الزمن وتعمّد فيه السيد المسيح عليه السلام، وتم ذلك اعتمادا على ما ورد بالكتب المقدّسة، وأقوال الرحّالة والحجاج والمكتشفات الأثرية التي تطابق بشكل كبير بما وصل إلينا من ترجمات لأقوال بعض الرحّالة والحجاج الذين زاروا الأراضي المقدّسة من أنحاء مختلفة من العالم ووصفوا ما شاهدوه خلال فترة زيارتهم للموقع، بالإضافة إلى خريطة الأرض المقدسة الموجودة في كنيسة الروم الأرثوذكس في مادبا.

فحسب الكتب المقدسة، بعد موت موسى ومن هذه البقعة، عبر يشوع بن نون بالشعب إلى أريحا، فجاء إيليا النبي من أريحا ووصل إلى النهر فضربه بردائه فانفصلت المياه وعبر على اليابسة هو واليشع الذي خلفه حاملا روحه ورسالته وفيما هما يتحدثان إذا بعربة نارية جاءت فصعد فيها إيليا إلى السماء.

ومرت السنون وظهر يوحنا المعمدان في هذه البقعة فاستلم شعلة الإيمان والرسالة، وأخذ يعمد في نهر الأردن وفي الينابيع المجاورة وكان عماده رمزا للتوبة والعودة إلى الله، وجعل من بيت عنيا عبر الأردن مقرا رئيسيا لكرازته وكان ينام ويرتاح في مغارة بالقرب من عيون وادي الخرار ومن مغارة إيليا النبي.

ويذكر الإنجيل المقدس أن السيد المسيح وصل إلى بيت عنيا عبر الأردن وتوجه إلى يوحنا ليعتمد منه واصطف في موكب الخطاة التائبين. وقد عرفه يوحنا بوحي والهام من الروح القدس واخذ يمانع قائلا أنا الذي احتاج أن تعمدني ولكن يوحنا أمام إصرار يسوع نزل عند رغبته وعمده في نهر الاردن فتقدست مياهه.

وفي هذه الأرض الأردنية اصطفى الله مواقع خاصة، فشمال البلاد تتيه فخرا بموطن النبي إيليا ابن لستب، وشمالها ووسطها يفتخران بكون المسيح أجرى فيهما العجائب وبشر في مدنهما التي كانت تابعة لتنظيم المدن العشر. وجنوب البلاد تتيه فخرا بكون يوحنا المعمدان استشهد في قلعة مكاور الواقعة إلى الجنوب من مادبا. وفي مجرى نهر الأردن، في هذه البقعة اعتمد على يد يوحنا المعمدان وانضم إليه خمسة من تلاميذه منهم بطرس، ومن هذه البقعة انطلق يبشر بملكوت الله، وبدء حياته العلنية.

يتوسط بيت عنيا عبر الأردن طريق الحج المسيحي بين القدس وبيت لحم إلى الغرب وجبل نيبو إلى الشرق، فقد ترك لنا الحجاج والمؤرخون معلومات قيمة عبر العصور فيمكننا رؤية مدى تطابق ما ورد من قبلهم مع ما جاء في الكتب المقدسة وبما تم اكتشافه في الموقع مؤخرا، بالإضافة إلى ما هو موجود على خريطة الفسيفساء في مادبا. فقد كتب بعض الحجاج ذكريات حجهم وحفظ التاريخ بعضها، فالحاج القادم من مدينة بوردو سنة (٣٣٣م) والذي لم يذكر اسمه والحاج تيوديسيوس (٥٣٠م) وغيرهما أوضحوا موقع عماد الرب وقالوا انه يبعد خمسة أميال من البحر الميت وذكروا أيضا التل الصغير الواقع إلى الشرق من النهر قرب مكان عماد المسيح ومكان صعود النبي ايليا إلى السماء.

وأما الحاج أنطونينوس من بياشنسا (٥٧٠م) فقد أضاف معلومة أخرى وهي أن موقع العماد كان مقابل دير القديس يوحنا وأضاف أن هناك درج من المرمر يؤدي إلى حافة النهر حيث تعمد السيد المسيح عليه السلام (هناك وصف دقيق لأقوال الرحالة والحجاج في الفقرة بعنوان موقع عماد السيد المسيح عليه السلام).

وأهم خلاصة يمكن استنتاجها من شهادات الحجاج وكتاباتهم

هي التمييز بين الأحداث المختلفة التي تم إحياؤها على ضفاف النهر وتلك التي تم إحياؤها في منطقة عين الخرار. فعلى ضفاف النهر كانت تقام ذكرى عماد المسيح فبقايا الكنائس الخمس المبنية لذكرى تعميد السيد المسيح عليه السلام تشهد لهذا الحدث العظيم. وبقرب نبع وادي الخرار مغارة يوحنا المعمدان وبنيت الكنيسة والدير إحياء لذكرى بيت عنيا عبر الأردن حيث عمد يوحنا المعمدان وحيث ذهب يسوع للقائه. فهنا عاش الرهبان حياة البر والتقوى، زاهدين في الدنيا، مسبحين الله وممجدينه.

كما أن وجود خريطة الأرض المقدسة في كنيسة الروم الأرثوذكس في مادبا والممثل عليها موقع المغطس باسم عينون وصفصافص الموجود شمال البحر الميت وعلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وفي الجهة الغربية المقابلة للموقع توجد مدينة أريحا يتطابق مع ما ورد بالكتب المقدسة وأقوال الحجاج والمؤرخين والمكتشفات الأثرية في الموقع ويسمح لنا بأن نكون صورة شاملة عن أهمية الموقع والاحداث التي حصلت فيه.

أما بالنسبة لبعض الرموز الممثلة في خريطة الأرض المقدسة (**الشكل ١**)، ففي النهر توجد سمكتان تتقابلان بالضبط عند الموقع، والتفسير المنطقي هو أن السمك لا يعيش في البحر الميت لذا يعود باتجاه الشمال في نهر الأردن، ولكن من المهم أن نعرف بأن السمك كان رمزا للسيد المسيح عليه السلام ورمزا للعماد، فوجود السمكتين في هذه النقطة من النهر بالذات يدل على أن السيد المسيح تعمد عند هذه النقطة من نهر الأردن. أما بالنسبة للأسد الذي يلاحق الغزال فلا يرمز فقط للحياة البرية (برية يوحنا المعمدان) في الموقع، بل يمكن تفسيرها «بالقوي» يلاحق «الضعيف» أو بتحليل آخر «هيرودس» يلاحق «يوحنا المعمدان» الذي قال له أنه ليس حلالا أن يتزوج زوجة أخيه، فألقى القبض عليه وأودعه السجن وبعد ذلك أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان (متى ١٤).

المكتشفات الأثرية

تل مار إلياس (الشكل ٢)

وادي الخرار هو الاسم الحديث لموقع (صفصافص) الممثل على الخريطة الفسيفسائية للأرض المقدسة في مدينة مادبا، والتي تعود

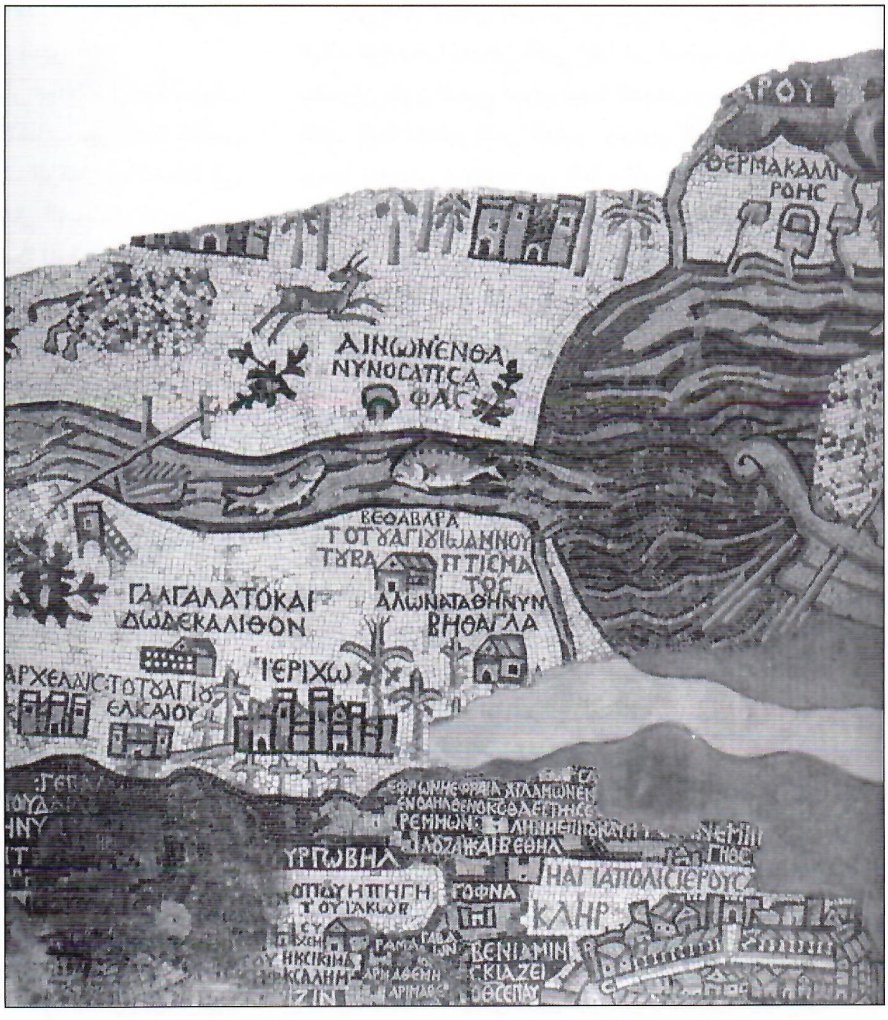

١. جزء من خارطة الأرض المقدسة.

إلى القرن السادس الميلادي يقع الموقع شرق نهر الأردن غرب قرية الكفرين مقابل مدينة أريحا (ويبعد حوالي ٩ م شمال البحر الميت). ينبع وادي الخرار من شرق التل المعروف باسم تل مار إلياس، والذي صعد منه النبي إلياس (عليه السلام) إلى السماء بعربة نارية تجرها الخيل. وقد أقام البيزنطيون ديرا على هذا التل عرف باسم دير روتوريوس زاره العديد من الرحالة والحجاج، ووصفوه بدقة فمنهم الرحالة من مدينة بوردو/فرنسا زار الموقع سنة ٣٣٣م وقال «يقع الموقع الذي تعمد فيه السيد المسيح عليه السلام على بعد خمسة أميال شمال البحر الميت وبالقرب من هذا الموقع يقع التل الذي صعد منه النبي إلياس عليه السلام إلى السماء». أما الرحالة ثيودوسيوس الذي زار الموقع سنة ٥٣٠م قال «في المكان الذي تعمد فيه السيد المسيح عليه السلام، وفي الطرف البعيد من نهر الأردن هناك تل صغير يدعى حرمون حيث صعد منه النبي إلياس عليه السلام إلى السماء، ويبعد مكان عماد السيد المسيح عليه السلام مسافة خمسة أميال شمال البحر الميت». وكذلك الحاج أنطونينوس من مدينة بياشنزا زار الموقع سنة ٥٧٠م وقال «هذا هو المكان الذي صعد منه النبي إلياس عليه السلام إلى السماء، وفي نفس المكان يوجد تل صغير يدعى حرمون» (الذي ذكر في المزامير ١٣٣:٣). أما الكاهن الحاج الروسي دانيال والذي زار الموقع سنة ١١٠٦-١١٠٧م، فقد أعجب به وقال «ليس بعيدا عن نهر الأردن مسافة رمي رمحين هو الموقع الذي صعد منه النبي إلياس (عليه السلام) إلى السماء بعربة نارية، وهنا أيضا يوجد كهف القديس يوحنا المعمدان، وهناك نبع قوي من المياه التي تتدفق فوق حجارة باتجاه نهر الأردن، مياه هذا النبع باردة وطيبة، وقد شرب منه يوحنا المعمدان عندما عاش في الكهف».

دير روتوريوس

يوجد في تل مار إلياس دير من الفترة البيزنطية (**الشكل ٢**) يعود إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين تم وصفه أو أجزاء منه من قبل بعض الرحالة أمثال جون موسكوس وويليبالد. هذا الدير محاط بجدار خارجي وله مدخل من الجهة الشمالية الغربية، يؤدي إلى سكن الرهبان، ويوجد فيه عدة كنائس، وهناك نظام مائي شامل لهذا الدير وهو الأول شرق نهر الأردن على طريق الحج المسيحي بين القدس وبيت لحم إلى الغرب وجبل نيبو إلى الشرق من الموقع. ومن أهم أجزائه الكنيسة الشمالية، الكنيسة الغربية، قاعة الصلاة، النظام المائي، البرك وكنيسة القوس. ومن المكتشفات الأخرى: صوامع وكهوف الرهبان، استراحة الحجاج، البركة الكبيرة، نبع يوحنا المعمدان وموقع مريم المصرية.

موقع عماد السيد المسيح عليه السلام

تخليدا للمكان الذي تعمد فيه السيد المسيح عليه السلام قام المسيحيون الأوائل ببناء عدد من الكنائس وصفت بدقة من قبل الرحالة والحجاج والمؤرخين عبر العصور (**الشكل ٣**)، ولتكوين صورة شاملة ودقيقة عن أهمية هذه الكنائس، قمنا بدراسة هذه الكنائس والمكتشفات ومقارنتها مع ما تم ذكره من قبل الحجاج والمؤرخين.

١- كنيسة يوحنا المعمدان: أقيمت على الجانب الشرقي من نهر الأردن كنيسة تذكارية في فترة الإمبراطور انستاسيوس (٤٩١-٥١٨م)، عرفت هذه الكنيسة باسم كنيسة يوحنا المعمدان تخليدا لذكرى تعميد السيد المسيح عليه السلام في هذا الموقع. زار هذا الموقع الرحالة ثيودوسيوس سنة ٥٣٠م وقال: "يقع موقع عماد السيد المسيح عليه السلام على بعد ٥ أميال شمال البحر الميت عبر الأردن، وفي هذه البقعة يوجد عمود من الرخام عليه صليب. وهناك أيضا كنيسة يوحنا المعمدان بناها الإمبراطور انستاسيوس، وهي مرتفعة لأنها مبنية على عقود وأقواس لحمايتها من فيضانات النهر (**الشكل ٤، ٥**). وبالقرب من موقع عماد السيد المسيح عليه السلام عبر النهر يوجد تل صغير صعد منه النبي الياس عليه السلام إلى السماء». فعلى بعد حوالي ٩ كيلومتر شمال البحر الميت شرق النهر كشفت الحفريات الأثرية في الموقع عن بقايا القواعد المبنية من الحجر الرملي تعود لنفس الفترة، أما بالنسبة للعمود الرخامي ففقد بسبب فيضان النهر.

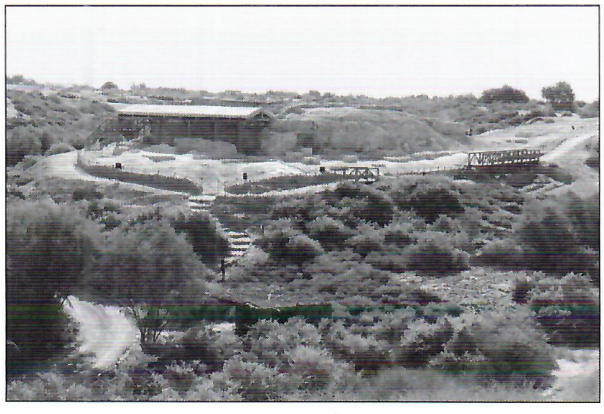

٢. تل مار الياس (دير روتوريوس) من الجهة الشمالية الغربية.

٣. منظر عام لموقع عماد السيد المسيح من الشرق.

٤. بقايا الأعمدة الحاملة لكنيسة يوحنا المعمدان من الشرق.

٢. الدرجات الرخامية: أما الرحالة أنطونينوس من بياشينزا / إيطاليا والذي زار موقع عماد السيد المسيح عليه السلام سنة ٥٧٠م فقال: «احتفلنا بيوم عيد الغطاس في موقع عماد السيد المسيح عليه السلام، في المكان الذي تعود فيه مياه نهر الأردن إلى ضفته، هناك صليب من الخشب في المياه وهناك درج من المرمر تهبط باتجاه النهر.... ومن هناك اتجهنا نحو مدينة أريحا».

فعند مقارنة ما تم اكتشافه بما وصفه الرحالة أنطونينوس، نرى تطابقها وبدرجة كبيرة جدا، فبقايا الدرج الرخامي تنزل نحو الشرق وتقترب مياه النهر نحو الدرجات من الجهة الجنوبية الغربية بالطريقة التي وصفها الرحالة قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة (**الشكل ٦، ٧**).

٣. كنيسة الرداء وحوض التعميد المميز: الرحالة أركولفوس

٥. بقايا الأعمدة الحاملة لكنيسة يوحنا المعمدان من الشمال الغربي.

٦. جزء من الدرجات الرخامية بعد طمرها بفيضان النهر سنة ٢٠٠٣.

٧. الدرجات الرخامية قبل طمرها بفيضان النهر.

الفرنسي زار الموقع سنة ٦٧٠م وترك لنا معلومات قيمة وقال: «توجد كنيسة صغيرة في حافة النهر مبنية في المكان الذي ترك فيه رداء السيد المسيح عليه السلام عندما تعمد، وهي مرتفعة على أربع عقود وأقواس فوق مياه النهر...».

إن أهمية هذا الوصف تكمن في الوصف الدقيق لكنيسة الرداء، فقد برزت في نهاية الدرج الرخامي القاعدتين الشماليتين لهذه الكنيسة (**الشكل ٨**) وتم الكشف في الحفريات التي جرت صيف سنة ٢٠٠٢م عن بقايا أساس القاعدتين الجنوبيتين والتي دمرت بشكل شبه كامل بفعل الفيضانات والزلازل، ومن الأهمية بمكان القول أن هذه القواعد الأربع بنيت بشكل متماثل حول الدرج الرخامي وفي نهايته وعلى الأجزاء السفلية من القاعدتين الشماليتين هناك أثر لآلاف الصلبان محفورة على القصارة الأصلية (يرتفع منسوب أرضية حوض التعميد حاليا مترين عن منسوب نهر الأردن). فلذا يمكننا القول بأن كنيسة الرداء بنيت فوق حوض تعميد فريد من نوعه، فهذا الحوض هو الوحيد المصلب الشكل بالعالم الذي تصله مياه نهر الأردن ليتم التعميد فيه.

٤. البازيليكا «السفلية»: أظهرت الحفريات والمجسات في الجهة الغربية من البازيليكا وفي منطقة الرواقين الشمالية والجنوبية منها بقايا أرضيات رخامية ذات أشكال هندسية وألوان مختلفة ومتميزة (**الشكل ٩**)، ومن الملفت للانتباه في هذه الأرضيات أنها تنحدر

٨. كنيسة الرداء والقاعدتين الشماليتين لحوض التعميد ويظهر المصلى فوق إحدى القواعد.

باتجاه الغرب وهذا من الأدلة بأن نهر الأردن كان بالغرب منها وكان السبب الرئيسي لدمارها بهذا الشكل، ويمكننا مشاهدة أجزاء من الجدار الجنوبي من البازيليكا «السفلية» من الناحية الغربية منها. بنيت البازيليكا «السفلية» مباشرة على الأرض الطبيعية المرتفعة قليلا عن ما حولها، وصممت بنمط يختلف هندسيا عن الكنيستين السابقتين (كنيسة يوحنا المعمدان وكنيسة الرداء) اللتان بنيتا على عقود وأقواس لحمايتهما من فيضان النهر.

٥. البازيليكا (كنيسة الثالوث المقدس): مع أنها بنيت على منسوب أعلى من البقايا التي حولها، إلا أن القليل من أجزائها بقيت محمية، طولها لا يقل عن ٢٧مترا أما عرضها فكان ١٥,٨ مترا. وبما أنها بنيت على أنقاض كنيسة يوحنا والبازيليكا «السفلية» فقد استخدمت هذه البقايا كأساس لها (**الشكل ١٠**). تكون البازيليكا من الرواق الأوسط وعرضه ٥,١٢ مترا (**الشكل ١١**)، والرواقين الشمالي والجنوبي بعرض ٣,٥ متر تقريبا يظهر فيهما بعض الأجزاء من الأرضية الفسيفسائية الأصلية. ومن أهم الظواهر المعمارية المتبقية أساس حاجز الهيكل، والهيكل المستطيل الشكل وطوله ٧,٦م ومن أهم البقايا الموجودة فيه أساس المذبح المربع الشكل وقطعة من أرضيته الفسيفسائية ذات الألوان المختلفة، ومن أهم الرسومات عليها صليب في الزاوية الشمالية الشرقية ومزهرية يظهر منها ثلاث

٩. الأرضية الرخامية للبازيليكا السفلية في الرواق الشمالي.

١٠. البازيليكا من الشرق مربوطة مع درج التعميد.

١١. منطقة حنية البازيليكا من الغرب.

أوراق نخل صغيرة (**الشكل ١٢**).

وما يميز هذه البازيليكا عن غيرها وجود قاعة شرق جدار الهيكل لها أرضية من المرمر المزخرف بأشكال هندسية فريدة ولهذه القاعة بوابة من الجهة الشرقية يربطها بالدرج المبني من المرمر تهبط باتجاه النهر.

كما نرى مدى تطابق ما تم الكشف والحديث عنه سابقا مع أقوال الرحالة إبيفانيوس الذي زار الموقع في النصف الثاني من القرن الثامن وقال: «عاش يوحنا المعمدان في مغارة بجانب نبع حوالي ميل واحد شرق النهر، وعلى ضفة النهر كنيسة يوحنا المعمدان وكنيسة الثالوث المقدس وهي كبيرة».

٦. المصلى: بعد دمار كنيسة الرداء، تم بناء مصلى صغير الحجم (٥ × ٣م) على أنقاض القاعدة الشمالية الغربية بمواد شبيهة بتلك المستخدمة لبناء الكنائس المذكورة سابقا، له حنية نصف دائرية صغيرة، وكباقي الكنائس في نفس الموقع بقي منه فقط أجزاء بسيطة من الحجر الرملي المستخدم في بنائه ولكنها كانت كافية لإعادة بنائها بالرسم فقط (**الشكل ١٣**). للمصلى بوابة بعرض ١,٦م من الجهة الشمالية يؤدي إلى الصحن حيث بقايا الأرضية الهشة، أما أرضية الحنية فتعلوا حوالي ١٥سم عن أرضية الصحن والأرضيتان مكسوتان بطبقة من خلطة شيدية ذات لون مائل إلى البياض.

١٢. بقايا الفسيفساء في حنية البازيليكا.

١٣. بقايا المصلى من الشمال.

أما رئيس دير من روسيا اسمه دانيال فقد وصف المصلى أثناء زيارته للموقع سنة ١١٠٦-١١٠٧م وقال: «على بعد مرمى حجر من النهر إلى الشرق يوجد مصلى صغير له حنية صغيرة بني في موقع عماد السيد المسيح عليه السلام». فتم ترميم هذا المصلى وبناء مضلة تمثل شكل المصلى لحماية بقاياه. وتخليدا للمكان الذي تعمد فيه السيد المسيح عليه السلام قام المسيحيون الأوائل ببناء كنيسة تلوى الأخرى بعد دمارها بسبب الزلازل وفيضانات نهر الأردن، تميزت هذه الكنائس بأنها صممت وبنيت بأشكال هندسية مميزة وبأنها أخفض كنائس على الأرض والأقرب إلى نهر الأردن شرقا، ووصفت بدقة من قبل الرحالة والحجاج والمؤرخين عبر العصور. فعند دراسة هذه الكنائس والمكتشفات ومقارنتها مع ما تم ذكره من قبل الحجاج والمؤرخين، وما ورد بالكتب المقدسة، وما هو موجود على خريطة الأرض المقدسة يمكننا تكوين صورة شاملة ودقيقة عن أهمية هذه الكنائس وسبب بنائها في هذه البقعة بالذات، متحدين ببنائها العوامل الطبيعية الصعبة لتبقى للعالم أجمع شاهدا ورمزا لانطلاق الدعوة المسيحية من هذه الأرض المباركة المقدسة (**الشكل ١٤**).

كلمة شكر

كل الشكر والعرفان إلى صاحب السمو الملكي سمو الأمير غازي بن محمد المعظم لدعمه ورعايته لموقع المغطس وتشجيعه للبحث العلمي. والشكر أيضا إلى عطوفة مدير عام الآثار د. فواز الخريشة لدعمه كافة الأمور العلمية والمحافضة على الآثار المكتشفة في الموقع، وعطوفة مدير هيئة موقع المغطس المهندس ضياء الدين المدني لدعمي في العمل الميداني وعملية التوثيق، ولا بد لي أن أشكر كافة أعضاء هيئة تحرير حولية دائرة الآثار العامة لتقديمهم العون والمساعدة.

رستم مكجيان
دائرة الآثار العامة

Biblography

Holy Bible

Mkhjian, R. and Kanellopoulos, C.
2003 John the Baptist Church Area: Architectural Evidence. *ADAJ* 47: 9-18.

Mkhjian, R.
2004 John the Baptist Church Area: New Evidence Regarding the Basilica and Four Piers. *ADAJ* 48: 239-241.
2005 Preliminary Report: Rhetorius Monastery / Bethany Beyond the Jordan. *ADAJ* 49: 403-410.

Koch, G.
1995 *Early Christian Art and Architecture.* Translated by J. Bowden.

Arculfus
1895 The Pilgrimage of Arculfus in the Holy Land. *Palestine Pilgrims Text Society* III. New York: AMS, 1971.

Epiphanius
1971 *Account of the Holy City and the Holy Places.*

Kopp, C.
1962 *The Holy Places of the Gospels.* Translated by R. Walls 1963.

Willibald
1895 The Hodoeporicon of Saint Willibald. W.R. Brownlow, trans. *Palestine Pilgrims Text Society* III. New York: AMS, 1971.

Daniel
1895 Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land. C.W. Wilson. *Palestine Pilgrims Text Society* IV. New York: AMS, 1971.

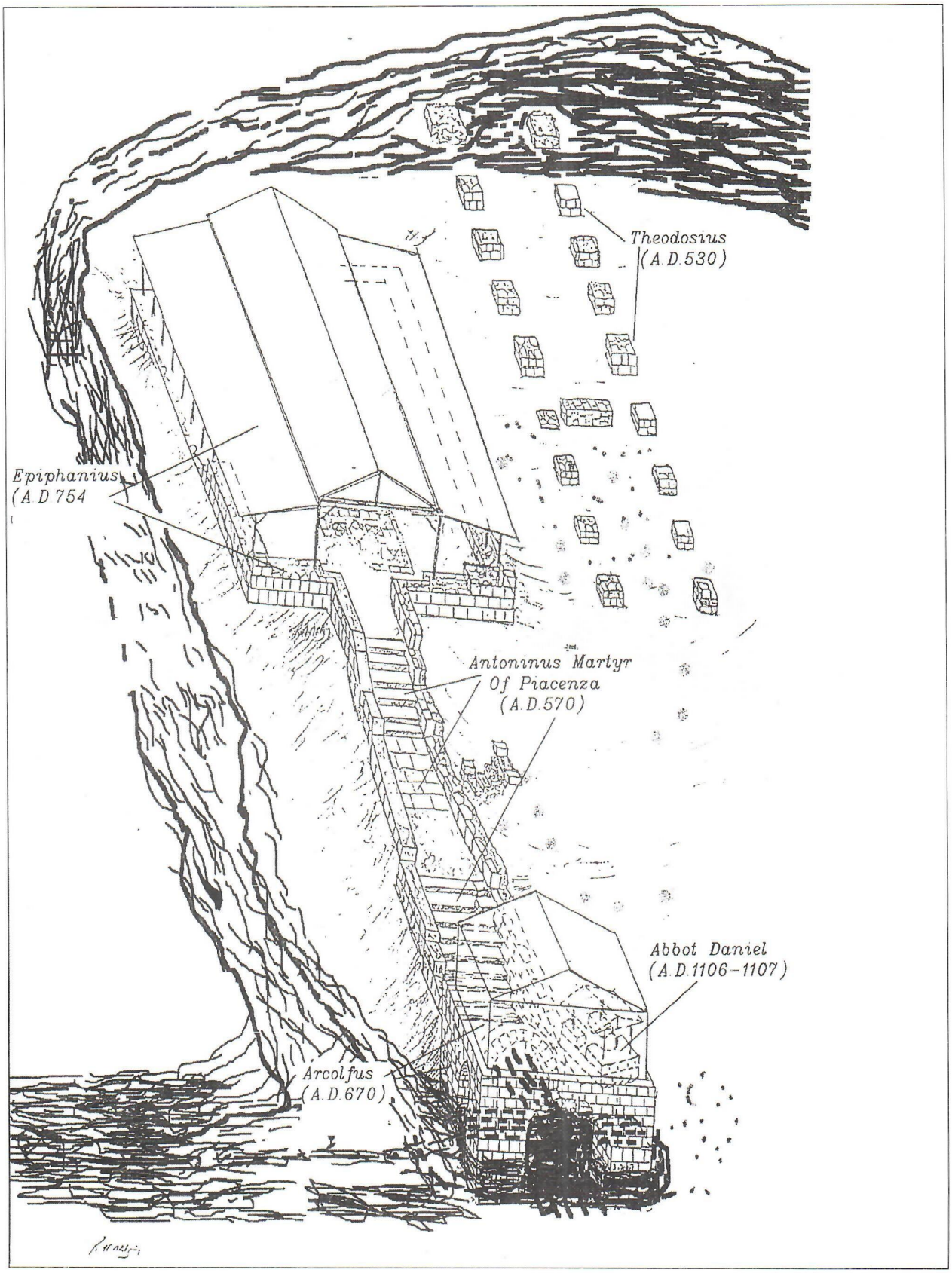

رسم يوضح الكنائس التذكارية الخمس.